سنن التغيير

فقدان التوازن الاجتماعي

بإزاء

«مشكلة الزي والملابس»

جودت سعيد

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

فقدان التوازن الاجتماعي

«مشكلة الزي والملابس»

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

الكتاب ٨٩٥
الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م
ط ١ = ١٩٧٨ م

لبنان ـ بيروت ـ ساقية الجنزير، خلف الكارلتون، س. ت ٥١٤٩٧
ص. ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق

الْحَمْدُ للهِ
وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

كلمة الناشر

لقد بدأ المؤلِّف يطرح أفكاره ضمن سلسلة اختار لها عنوان (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، منذ حوالي ثلث قرن ، في محاولة منه للإسهام في معالجة مشكلة تخلف المسلمين ، وانعدام فعاليتهم ، وغيابهم عن التأثير في أحداث العالم ، وعجزهم عن مواجهة الغزو الاستعماري الذي نجح في استضعافهم واستذلالهم ، ونهب خيراتهم ، واستغلال مواردهم .

وعلى الرغم من البطء في انتشار هذه الأفكار ، ودخولها في وعي المثقفين ، بسبب الحجب الكثيفة المسدلة على العقول ، وسيطرة الفكر التقليدي على الأذهان ، والخوف من التغيير الذي جعله الله تعالى الطريق الوحيد للنهوض من العثار في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وعلى الرغم من سقوط العمل الإسلامي خلال هذه الحقبة في المحاذير التي نبَّه إليها المؤلف ، وغرق العديد من بلدان العالم الإسلامي في دوامة العنف التي حذر منها ، واعتبرها أم المشكلات ، ورأس الفتن والبلايا .. ,

وبعد ثلث قرن من التجارب والمعاناة لهموم المسلمين ، فإن المؤلف يبدو أكثر اقتناعاً بأفكاره التي سبق أن طرحها ، وأكثر إصراراً على نشرها وترسيخها في ذاكرة الأجيال ، عسى أن يخرج منهم شباب أكثر وعياً ، وأعمق فهماً ، وأرحب صدراً ، وأوسع انفتاحاً ، وأقدر على توجيه مجتمعاتهم المتخلفة نحو الرقي والحضور على مسرح الأحداث العالمية ، والإسهام الإيجابي في صنعها .

يبدو ذلك من مقدمته التي كتبها لهذه الطبعة الجديدة المنقحة من سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، والتي آثرنا أن نصدر بها كتابه الأول في هذه السلسلة : (مذهب ابن آدم الأول) ، وأن ننوِّه عنها في بقية الكتب ، دون أن نكررها في كل واحد منها ..

آملين أن نكون بذلك قد أسهمنا في نشر هذه الأفكار والترويج لها ، كي تصل إلى مستوىً أوسع من القراء في العالم العربي والإسلامي ، تاركين للقراء أن يسهموا ، بوعيهم وشعورهم بالمسؤولية عن أداء الأمانة : في تحويل هذه الأفكار إلى نطاق الفعالية ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر : ﴿ ومَنْ أحسَنُ قَولاً مِمَّن دَعَا إلى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَقَالَ إنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصّلت ٤١/٣٣] ، ﴿ وَمَنْ أظلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ [البقرة ٢/١٤٠] .

المحتوى

مقدمة

بقلم : ليلى سعيد

هذا الكُتَيّب رسالة من مجموعة رسائل تلقّيتها من أخي جودت عام ١٩٦٨ ، أيام محنة لم تكن فيها من صلة بيننا سوى الرسائل ، وكنت أُطلع عليها من كنت على صلة معهم من الإخوة والأخوات ، إلا أنه كان في نفسي وما زال : أن هذه الرسائل ينبغي أن تُنشر ، لما فيها من موضوعات شيّقة ومفيدة .

ولهذه الرسالة قصة قصيرة ، تبدأ منذ أن تعرّفنا على الأخت التي كانت تُجري ترتيبات السفر إلى أمريكا ، للالتحاق بزوجها الذي يتابع دراسته هناك .

ومضت فترة ، ونحن على صلة معها ، نتدارس ونتباحث ، ومما زاد من اهتمامنا بها معرفتنا بزوجها ، وما له من مزايا في الجدّ والاجتهاد .

ولّما كان يتطرق الحديث إلى اللباس الشرعي ، كانت بعض الأخوات يُشجّعنها على ارتداء الجلباب عملاً بقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها

النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ ، وَبَنَاتِكَ ، ونِسَاء المؤمِنِينَ : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أن يُعْرَفْنَ فَلا يؤذَيْنَ ، وَكَانَ اللهُ غَفوراً رَحِيماً ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٥٩] .

وكانت تجيبهن : إن أسرتي لا تسمح لي بذلك ، وإنني سأواجهُ مِن أهلي وأقاربي وكل من حولي معارضة شديدة لا أستطيع مجابهتها ، وإنني سأسافر قريباً إلى بلد الحرية : إلى أمريكا ، وهناك لا يتدخل أحد في شؤوني الخاصة ، ألبس ما أشاء ، وما يروق لي ، وإني أنتظر اليوم الذي سأسافر فيه ، حتى أرتدي الجلباب وأسافر به ، وإن زوجي سيسرُّه ذلك .

وفعلاً : حان موعد سفرها ، وكانت قد أعدَّت جلباباً أنيقاً مع خِمار ، فلبسته وسافرت ... ثم أرسلت بعد وقت قريب إلى إحدى الأخوات رسالة تُعلمها فيها أنها بعد وصولها خلعت الجلباب ، لأنها شعرت بأنها إن بقيت بهذا اللباس فستكون منبوذة ، وستكون حبيسة البيت ، وذكرت الأدلَّة على ذلك : فالذين كانوا في استقبالها في المطار من أصدقاء زوجها قد أظهروا جفاء ، وانسحبوا حين رأوها بلباسها هذا ، وأنها بعد أن فكرت ، وقلَّبت الأمر ، اكتشفت أنها كانت غبيَّة حين كانت تظن أنها لا تستطيع أن تكون مسلمة داعية بدون حجاب ، وأنها رجعت إلى الآيات المتعلقة بالحجاب فوجدت أنها نزلت بعد

تكوّن المجتمع الإسلامي ، وأن ظروفها تختلف عن ظروف المجتمع الإسلامي ، وما إلى هنالك من المسوغات .

لقد كان الخبر غريباً على الأخوات ، ومفاجئاً لهنّ ، واختلفت الغرابة والمفاجأة عند كل واحدة منهن بقدر ما عندها من تصورات ومفاهيم .

وقصّتنا هذه ، ليست قصة تخصُّ أفراداً معينين فحسب ، بل إنها قصة متكررة مع كل من يمر في مثل مراحلهم ، ولعل أطراف القصة تختلف من فرد إلى آخر ، إلاّ أنَّ الأصل والسبب واحد ، ألا وهو : العجز عن التوازن بين المبدأ والواقع .

والآن .. وبعد مضي عقد من الزمن ، وبعد أن قُدّر لي ولعدد من أخواتي في الله رؤية العالم الغربي ، والتعرف هناك على عدد جيد من النخبة التي تتابع الاختصاصات في مجالات عديدة من بلدان العالم الإسلامي ، إخوة وأخوات ، سمعت ورأيت الكثير من مظاهر تلك القصة ، وذلك :

ـ في صورة الشاب الذي يمدُّ يده ليزيح عن رأس عروسه التي اصطحبها معه إلى أوروبا غطاء شعرها قائلاً : لم يبقَ لهذا دور في هذه البلاد .

ـ وفي صورة الـزوجـة التي لا تكترث لرغبـة زوجهـا المؤمن ، وإلحاحه على التزام شرع الله في لبـاسها مـدَّعيـة : أن اللبـاس الشرعي لا يتناسب مع الاختصاص الذي يمارسه زوجها ، أو الذي تمارسه هي ، في حين رأيت مؤمنات ملتزمات في الاختصاص نفسه .

ـ وفي صورة مجموعة من زوجـات الأطبـاء كنَّ يحـاولن أن يكون غطـاء الرأس يتنـاسب مـع بعض التقليعـات الأجنبيـة حتى ينفين عن أنفسهن أيَّ مظهر يـدلُّ على أنَّهنّ شرقيـات ، ومنتميـات إلى العـالم المتخلِّف . وبعضهنَّ رفضْنَ الاعتراف بذلك ، وحاولنَ إيجـاد مسوغـات أخرى ، إلاّ أنَّ الصريحات منهنَّ ذكرنَ لي بوضوح دوافعهن إلى اختيـار تلك الأشكال .

ـ وكذلـك في صورة امرأة وسـط مجلس يضمُّ رجـالاً ونسـاءً ، في لباس غير محتشم على أقلِّ تقدير .. وقد قلتُ لهـا بعـد أن انفضَّ المجلس وانفردت بها : فهمنـا أنكنَّ تبغين بكشف الشعر وأطراف الجسم إظهـار المفـاتن والجمـال ، ولكن وصل الأمر إلى إظهـار مـاليس بجمال !! وأيَّ جمـال تبغين من كشف أجزاء من الجـذع ؟! إن الأمر خرج من الجمـال إلى الابتذال !

قـالت مفسِّرة ومسـوِّغـة : لقـد كنت محجَّبـة ، وقضيت سنـوات

الدراسة الجامعية مع التمسُّك بحجابي ، ولمَّا تخرجت ودخلت العمل تراجعت ، ولما تزوجت وسافرت لم أجد حولي سنداً يدعمني ، لذلك مااستطعت المحافظة على ما كنتُ عليه ، وتركت الحجاب ، وتركت الصلاة ! ولم يبقَ لديَّ سوى صيام شهر رمضان .

وقفت عند قولها لم أجد حولي سنداً يدعمني . وكانت تقصد أنها لم تجد أشخاصاً يدعمونها ، ويشجِّعونها ، ولكن انتقل ذهني إلى سند من نوع آخر ، فلو كانت عندها فكرة تدعمها ، ألم يكن بإمكانها الاستمرار ؟!

وهكذا .. بعد أن تكررت القصة ، وزادت تجاربي ، شعرت بأهمية عرض هذه الأفكار ، كي تتاح لها أن تصل إلى أيدي إخواننا وأخواتنا ، خاصة المقيمين منهم على محور موسكو - واشنطن ، ذلك المحور الذي يَتيه فيه من لا قدرة له على التوازن بين المبدأ والواقع ، أو بين النظرية والتاريخ ، أو بين الفكرة والتطبيق .

إن الفكرة التي تفقد السند الاجتماعي تتعرض للزلزلة ، والمسلم في الوضع الراهن يُعاني من هذه المشكلة ، فالمسلم في عمومه لا يعاني من أزمة في مبدئه الديني ، وإنما يعاني من عجزه عن حلِّ مشكلاته وفق السُّنن الاجتماعية ، وهذا العجز ينعكس بدوره على مبدئه ، ومعظم

الذين يفقدون الإسلام من أهله أو من غير أهله ، ينطلقون من هذه النظرة .

وهذا الموضوع بحاجة إلى تفصيل أدق كي يكون واضحاً ، فإن وضوحه يحلُّ كثيراً من المشكلات . وقد أكَّد الأستاذ مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ على هذا الجانب في فصل : العالَم الإسلامي وفكرة الأفروآسيوية ، من كتابه (فكرة الافريقية الآسيوية) .

ويمكن إلقاء ضوء أكثر وضوحاً على هذه الفكرة بأسلوب آخر ، وهو أسلوب الإخلاص والصواب ، فقد يكون الإنسان مخلصاً جداً ، يبذل نفسه وماله في سبيل مبدئه ، إلا أن إخلاصه هذا غير كافٍ للنجاح إن لم يكن عنده علمٌ يُعَرِّفه كيف يخدمُ مبدأه .

هذه هي مشكلة العالَم الإسلامي : مشكلة الإخلاص والصواب ، أو مشكلة المبدأ والواقع ، أو مشكلة الفكرة والتطبيق ، أو مشكلة الانفصام الاجتماعي ، أو مشكلة الإيمان والعلم .

وتلكم هي القصة كما كتبتُها إلى أخي جودت ، ولنتأمل الآن رسالته الجوابية التي يكشف فيها الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى فقدان التوازن الاجتماعي ، ذلك أن كشف هذه الأسباب يجعلنا نتبيَّن بعض سنن تغيير النفس والمجتمع .

وهو الذي كتب إليَّ يقول :

... وأشعر أنني أُطِــلُّ على العــالَم من خــلالــك ... ولئن كانت الرسالة موجَّهة إليَّ ، فالأفكار لكل من يبحث عن الصواب .

الخميس : ١٣٩٨/٦/٢٥ هـ

١٩٧٨/٦/١ م

ليلى سعيد

الفصل الأول

بين المبدأ وضغط الواقع

﴿ إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ .

[النّساء : ٤/٧٧]

... وأما خبر الأخت التي خلعت جلبابها ، فليس غريباً عليّ ، بل هو الحدث الطبيعي ، ومع اعترافي بذكاء الرجل وتديُّن المرأة فلا يكفي ماعندهما للسيطرة على الموضوع ، لاهما ، ولا من هم أكمل منهما . بل إن كثيرين وكثيرات من خيرة من نعرفهم إذا تعرضوا لمثل هذه الظروف تحدث لهم الحال نفسها ، فكرةً وسلوكاً . فمن ناحية التصرف السلوكي يتغير وضعهم ، وأما التصرف الفكري فيظهر في محاولة إيجاد المسوّغ العقلي لهذا التصرف السلوكي ، بل والشرعي أيضاً .

ولو فُهم ما يتطلبه اللباس الإسلامي من الثقافة أو الروح التي تعطي المسوّغ له ، لساعد هذا الفهم على حلّ كثير من المشكلات ، ولكن الانفصام الاجتماعي الذي يعانيه مسلم اليوم هو الذي يفقده

توازنـه في هـذا الموضوع ، فلا يتمكن من أن يكيّف ضغـط الواقـع مـع مقتضيات المبدأ إلا بشيء من التلفيق ، وبيان هذا بحاجـة إلى شيء من الشرح .

وهنا تتوارد عليّ أفكار كثيرة وخواطر تعين على تبيين الموضوع ، لاأستطيـع شرحهـا كلهـا ، ولكن لا بـدّ من الإشـارة إلى بعضهـا ، لأن الحـادثـة كانت غريبـة على الأخـوات ، والغرابـة تـأتي من خفـاء بعض الأسبـاب ، وهنـا ينبغي أن أبـادر وأقـول : إني لم أغيّر رأيي في الأخ وزوجه ، فهما نموذجـان جيـدان من مجتمعنـا ، ولا أزال عنـد تقـديري لهما ، وعنـدي أمل فيهما ، فـإن مـا يتمتع بـه الأخ من الأخلاق والـذكاء ـ أعني : الإخلاص والصواب ـ أكبر بكثير ممـا عنـد غيره . ومن شروط الحياة الاجتماعية أن الثغرات لا تُفْتَحُ إلا عنـدمـا يكون التخلّف ، كما في مجتمعنـا ، وإنـه لمن النموذج الممتـاز ، وحتى حين يتقوقع وينسحب من مجال الفكر والعمل الإسلامي لا يكون عملـه غريبـاً ، وإن كان ثبـاتـه مُتَوَقّعاً أكثر من غيره .

ألا تـــذكرين الكثير من الرعيـل الأول من دعـــاة الفكر الإسلامي : كيف انحسروا ؟ إلا أن نوع الانحسار يختلف من شكل إلى آخر ، وإن كان المـآل في النهـايـة واحـداً وهو الانحسـار . وإننـا كثيراً ما نعجز عن رؤية السبب الواحـد للنمـاذج المختلفـة ، فـالانسحـاب من

العمل الإسلامي إذا أردنا شرحه ـ كما يفعلون في البحوث النفسية الاجتماعية ـ نقول : إن الإنسان الذي فَقَدَ مُسَوِّغ عيشه في المجتمع ، يترك المجتمع كما يترك أيّ إنسان الوظيفة التي لم يعدْ لديه مسَوِّغٌ للتّعلُّق بها . ولهذا التصرُّف أمثلة كثيرة متفاوتة في الوضوح والغموض ، إلا أن الانسحاب من المجتمع يأخذ صوراً شتّى .

ففي بعض الأحيان يأخذ الانسحاب صورة الانتحار : كأن يلقي الإنسان بنفسه من جبلٍ ، أو في نهرٍ ، فهذه الحالة معناها أن الإنسان الذي فعل هذا ، شعر بأنه أنهى دوره في المجتمع ، ولم يَعُدْ لوجوده مسوّغ ، لذلك أنهى حياته بشكلٍ ما ، وانسحب من المجتمع على هذه الصورة . إن شعوره بأن الناس يرونه في وضع معيب ، أو مليء باليأس ، هو الذي يورّطه ، وإنه لواقتنع بأن موقف الناس منه ليس بهذا ، وأنه قادر على مَحْوِ ماضيه ، فإنه لن ينتحر .

ولكن بعض المنسحبين الذين أنهوا دورهم لا يفعلون هكذا ، ولا يتصرَّفون التصرُّف نفسه ، وإن كان الدافع واحداً في الحالين (وهو الشعور بأنه لم يعد له مسوّغ ، ولا مهمة لوجوده في هذا المجتمع) ، فهذا النوع الثاني لا ينهي حياته الاجتماعية انتحاراً بالسكّين ، ولكن يعتزل المجتمع ، ويفرّ من أداء الواجب ، لأنه لم يَبْقَ له مسوّغ . وهذا الذي قيل فيه ، فهناك من ينتحر بالسيف ، وهنا من ينتحر بالسّبْحَةِ .

كما أن هناك انتحاراً آخر يحصل عند البعض ، حيث يتركون دينهم ، ويتبعون الأهواء والشهوات ، وهذا الانتحار غير صامت ، بل له ضجيج ، وصاحبه منسحب من مجتمع إلى مجتمع آخر ، فهو لم يعد يخدم المجتمع الذي نشأ فيه وأنشأه ، وكان هو ثمرة من ثمراته ، بل يخدم مجتمعاً آخر ليس له أي فَضْلٍ عليه .

وبالرغم من اختلاف هذه الأشكال ، إلا أن النتيجة واحدة ، وهي : أن مَثَلاً معيناً قد خسر فرداً من أتباعه ، وأنَّ الدافع إلى الانسحاب واحد أيضاً في عنوانه العام وهو : عدم بقاء مسوِّغ للوجود في هذا المجتمع الخاص ، كما يبدو لهم ، فهم يبحثون عن مكان آخر غير هذا المكان ، والطُّرق إليه كثيرة ، فهذا ذهب إلى قبره ، وذاك ذهب إلى صومعته أو كهفه ، والثالث ذهب إلى مكان يليق به أيضاً .

فقد يختلف هؤلاء أخلاقياً بالنسبة لمبدأ معين ، ولكن النتيجة الاجتماعية واحدة ، فمن الناحية الأخلاقية يقال للأول : منتحر ، وللثاني : زاهد معتزل ، وللثالث : مُتهتِّك أو تقدُّمي ، حسب الذوق الأخلاقي للمتحدِّث .

إلا أن كلاًّ منهم ترك مجتمعه ، فالكلُّ ماتوا اجتماعياً بالنسبة لمجتمع معين . فالأول أضاف إلى موته الاجتماعي موتاً عضوياً ، والثاني أضاف

موتاً فكرياً ، والثالث أضاف إلى الموت الاجتماعي والفكري شللاً وظيفياً ، فهؤلاء ماتوا كما تموت خلايا الجسد حين يصيبه الضعف .

والانسحاب من المجتمع يكون على درجات ، والإنسان الذي ينسحب قد لا يخرج من المجتمع ، أو عليه دفعة واحدة ، وإنما على مراحل ، والذي يهمُّنا هو الدافع الذي يحمل الإنسان على سلوك ما .

إن الضعف الذي أصاب الجسد الإسلامي ، والذي من أعراضه موت خلاياه بالشكل الذي بيَّنّاه ، هو فقدان المسوِّغ ، أو ما يسميه توينبي : الشعور بالأناقة . وهو الشعور بالتميُّز والتَّفوق الحضاري ، ليس تفوق فرد على فرد ، وإنما تفوق مجتمع على مجتمع ، وحضارة على حضارة .

فالمسلم لم يعد يشعر بأنه يحمل شيئاً يحتاج العالَم إليه ، وهذا الأمر بحاجة إلى تأمُّل ، ومسلم اليوم لا يشعر ولا يدرك ، أي : لا هو مقتنع غيبياً ولا عقليّاً ، لأن غيبيّتهُ فَقَدَت السند العقلي ، ومن يدرك الحقائق لا يَغْتَرُّ بأقوال من زعموا الكمال ، لأنهم يتكلمون بالبطولات وهم منهزمون ، ولا يفطنون إلى الذي ينقصهم ، أو ينقص آليّتهم الاجتماعية ، حتى يستطيع الفرد في المجتمع أن يكون سلوكه منسجماً مع أفكاره . إن مجتمعنا مصاب بهذا الوضع السيء من أخمصه إلى مفرقه ،

ولكن العموم في البليَّة يخفِّف من الإحساس بالمشكلة ، أو يضعف إدراكها ، غير أن ضعف الإدراك للمشكلة ليس حلاً لها ، إذْ إنَّ الحلّ المنجي للمشكلة يتطلَّب أرق الإحساسات وأوعى المدارك لحلّها لا التَّبلُّد فيها .

فكما أن الجسد الذي أصابه الخلل ، وأخذت بعض خلاياه تموت له دواء ، كذلك الجسد الاجتماعي الذي أصابه الخلل ، وبدأ أفراده يموتون الموت الاجتماعي الذي أشرنا إليه ، له دواء أيضاً ، ولقد ضرب مالك بن نبي(1) ـ رحمه الله ـ مثلاً مضحكاً لمظاهر المجتمع المريض الذي يتجسد مرضه في قادته حين يحاولون أن يثبتوا شخصياتهم ، بأن يلبسوا الطربوش مثلاً في المجتمعات الدولية : « وفي عصر شاع فيه الأسلوب العالمي بتأثير امتداد الحضارة الغربية التي وضعت طابعها على العالم كله ، يصبح من المضحك في عصر كهذا أن نلفت النظر إلينا بطابع من طوابع القرون الوسطى ، فمن الممكن أن نكون سلبيين من الناحية السياسية بمجرد تفصيل بسيط لثيابنا ، أو حركة نبديها ، أو هيئة نكون عليها ، وحين نرى وزيراً مسلماً يرتدي البزّة الأوربية ، ويحتفظ بطربوشه الأحمر من قبيل النعرة الوطنية خلال

---

(1) مالك بن نبي ، فكرة الإفريقية الآسيوية ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٣ ، ١٩٨١ ، ص ٢٣٨

حفلة ذات صبغة دولية ، فإننا نشعر بأنه قد اختـار السلبيـة مهما كلفـه ذلـك من ثمن ، وهي سلبيـة معجونـة من خليـط العجرفـة الصبيـانيـة والجهل بالعالم الراهن في اتجاهه العام .

ونشعر أيضاً بأن الأمر يتصل بمجتمع بـدأت حضـارتـه من القـدم ولم تصل بعد إلى الرأس .. » .

ولقـد رأيت هـذا المشهـد حين ذهبت أول مرة إلى مصر ، حيث كان الملك ورئيس الوزراء يلبسون الطرابيش الحمراء ، والتي لهـا بقـايـا الآن في شوارع دمشق أيضـاً ، مع أنهم كانـوا يلبسـون البزّة الإفرنجيـة ، ويضعون رباط العنق .

ولكن نلاحظ أن هناك خروجاً على هـذا الأسلوب من الاتصـال مع العالم عند (غاندي) ، فلقـد كان غـانـدي يشعر أنـه يملـك شيئـاً ، العالم في حاجة إليـه ، فكان مقتنعـاً بعقلـه ، وبـإيمـانـه الغيبي بضرورة حاجة الإنسانية إلى ما يدعو إليه ، فكان لذلك يشعر بأن لـه في المجتمع العالمي مهمَّةً ، كذلك لم يكن يشعر بضرورة الانسحـاب لأن لـه هـذه المهمَّـة ، ولم يشعر أيضـاً بضرورة التقليـد لـلآخرين بـأن يغيِّر من مظهره ، لأنـه لم يـدخـل إلى المجتمـع العـالمي ليقلِّـده ، بـل لأجـل أن يغيِّره ، فلا يمكن أن يحصل انسجام بين هـذين الأمرين : بين محـاولـة

تغيير العالم ، وبين تقليده ، فالمقلِّد لا يمكن أن يكون هادياً ، ولا يمكنه أن يهدي من يقلِّده ، لأنه إن فعل ، فعمله هذا عَبَثٌ وسخرية ، ويجلب له سخرية العالم ، لهذا لم يغيِّر غاندي لباسه ، ولم يلبس بزّةً إفرنجيةً بعد أن حمل مهمَّته العالمية ، بل كان كثيراً ما يمشي حافي القدمَيْن ، حاسر الرأس ، كأيِّ هندي آخر من أبناء أمته .

ولكن هذا الشعور الذي كان يحمله زعيم الهند ، أنقذ الهند إلى حدٍّ ما ، مما لم يستطع أن ينقذنا منه قادتنا الذين أشرفوا على قيادتنا . وإن (نهرو) لم يغيِّر لباسه الوطني ، وإن ابنته أنديرا لاتشعر بالمنبوذية حين تمثل العالم الثالث بلباسها الوطني ، مع أن الكلمة التي استخدمتها الأخت المسلمة في التعبير عن وضعها إن بقيت بلباسها كلمة (الشعور بالمنبوذية) . هذه الكلمة موطنها الهند ، ولا يتذكر أحد (المنبوذ) إلا ويخطر في باله منبوذو الهند ، لأن المنبوذية من عقائد الهند . وليس منشأ المنبوذية في أرضٍ أو وطنٍ ، وإنما هي حالة نفسية ، وتخلُّفٌ نفسي في أساسها ، هذا التخلُّف هو الشعور بالاستضعاف الذي هو (نفي الأنا) ، أو على حسب تعبير محمد إقبال ـ رحمه الله ـ : (رمز نفي الذّات) .

إن الشعور بالأناقة (الشعور بالتميُّز الحضاري) ، والشعور بالمنبوذية ، شعوران يمثِّلان بدء الحضارة ، وانهيار الحضارة ، فالحضارة

تبدأ بالشعور بالأناقة أو (بالاهتداء إلى الصراط السوي للخروج من الأزمات الملحَّة) ، بينما الشعور بالمنبوذية شعور باليأس ، وانسداد الطرق أمام المشكلات والأزمات .

وفي السير في الأرض ، وفي النظر إلى سِيَرِ الذين خَلَوا من قَبْلُ ، نجد هاتين الحالتين النفسيتين تلازمان النهوض والانحطاط ، فقد ظلَّ العالم الغربيُّ حتى قرنين مضيا ، يحمل شعور الأناقة ، كما ظلَّ العالم الإسلامي ما يقرب من عشرة قرون يحمل هذا الشعور .

وهذان الشعوران يتناوبان البشر والمجتمعات ، كما قال الله تعالى : ﴿ .. وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. ﴾ [آل عمران : ٣/١٤٠] ، في درجات متفاوتة ، بحيث نرى بقايا الشعور بالأناقة في بداية دورة الشعور بالمنبوذية ، كما نرى الشعور بالمنبوذية يبرز بدرجات متفاوتة قبل وبعد بدء الشعور بالأناقة ، ويمكن تفسير كثير من المواقف التي تمثِّل أدوار الحضارة في نماذج معينة : فعند المسلمين نراه في نموذج ربعي بن عامر ، وعقبة بن نافع[1] ، وفي نموذج

(١) فربعي بن عامر حين دخل بلاد الفرس ، بل حين دخل على ملك الفرس ، لم يكن يشعر بالمنبوذية ، أو بالدونيّة ، بل كان يشعر بأن هؤلاء الذين بيدهم حطام الدنيا وحكمها ، إنما هم مكبَّلون بغرائزهم ، وأن إسانيتهم قد ضاعت باستعباد بعضهم لبعض ، لقد دخل عليهم ربعي وهو يحمل حالة نفسية يمكن تسميتها : =

غاندي عند الهنود ، وفي نموذج نابليون عند الفرنسيين حين خطب في جنده بجوار الأهرامات ممتلئاً حماسة وشعوراً بالأناقة .

والشعور بالأناقة قد يكون في صورة انتصار عسكري ، أو تكنولوجي ، أو عدالة اجتماعية ، كما في الثورة البلشفية ، أو في صورة حقوق إنسان كما في الثورة الفرنسية ، وأما عند المسلمين ففي صورة القيام بدور حمل رسالة إنقاذ للبشر ، وإخراجهم من عبودية بعضهم لبعض ، والمتمثّلة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْننا وبَيْنكُم ، ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ .. ﴾ [آل عمران : ٦٤/٣] . وقد تجلّى هذا بوضوح في موقف ربعي بن عامر رضي الله عنه وعقبة بن نافع ـ رحمه الله ـ وأمثالهما كثير في التاريخ الإسلامي .

كما أنه يمكن العثور بوضوح على نماذج من هذا في الحضارة اليونانية والرومانية ، والحضارة القديمة إذا ما رجعنا إليها .

كما نجد النّماذج لحالات الشعور بالمنبوذية في هذه الحضارات كلّها . وهنا ينبغي أن نذكر ملحوظة وهي : أن التماثل النفسي في

= رسالة إنقاذ للآخرين ، ولقد استنشق ربعي هذه الحالة النفسية من مجتمع الرسول ﷺ حيث كان الإنسان يُرَبّى على أنه صاحب رسالة وأن من واجبه الصعود بني آدم إلى مستوى الإنسان المكرّم .

الدوافع والسلوك لا يستدعي تماثلاً في الحكم الأُخرَويّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ ... ﴾ [البقرة : ١٦٥/٢] . فالتماثل الموجود في الآية هو التماثل الذي نعنيه فيما يتعلّق بالدوافع في الحياة الاجتماعية لأعمال البناء وليس تماثلاً في الحكم الأخلاقي ، أو الأُخروي ، وقد بحث الأستاذ مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ هذا الموضوع في كتاب : (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) تحت عنوان : (صِدْقُ الأفكار وفعّاليتها) ، أي : صِحّتها أخلاقياً ، وإن فشلت في صلاحيتها لحلّ المشكلات في وقتٍ ما ، وذلك لأمور ترجع إلى البشر وليس إلى المبدأ ، أو أنها صالحة نسبياً لحلّ المشكلات ولكنها غير صحيحة تماماً .

فمن الخطأ أن نطلب من الأخت أن ترتفع إلى مستوى حالة الشعور بالأناقة (كرامة الإيمان) ، وهي لا تزال في مرحلة الشعور بالمنبوذية ، وهذا هو التغير المطلوب من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ [الرّعد : ١١/١٣] .

كما يمكن التعبير عن هذا المعنى بعبارة أخرى ، كأنْ نقول : من الخطأ أن نطلب من الأخت أن تُبْرِزَ شخصية المرأة المسلمة في لباسها

ومواقفها ، قبل أن نطلب من زوجها أن يخرج من نطاق التقليد والتبعية للآخرين في لباسهم ومواقفهم ، ولبيان ذلك نضرب مثالاً من الهند ـ مَنْشأ كلمة المنبوذية ـ: لقد استطاعت أنديرا أن تلتزم بلباسها الشعبي ، وبتراث ثقافتها ، وتقاليد شعبها ، عندما كان أبوها نهرو ملتزماً بالتراث الشعبي واللباس الوطني ، محلّياً وعالميّاً . واستمرت أنديرا بالتزامها هذا عندما كان زوجها ـ وهو فيروز غاندي[٢] ـ قد نشأ في بيت يلتزم ويحترم تقاليد أمته ، ويظهر في المجتمع المحلي والعالمي بلباسه الوطني .

ونحن حين يكون وضعنا ، ووضع الأخ المسلم مثل (جون كنيدي) في مظهره في أمريكا ، أو في شوارع دمشق ، فمن الصعب أن تقتدي الأخت إلا بـ (جاكلين)[١] .

(١) ينتسب فيروز غاندي إلى البارسيين ـ أي المجوس ـ ولم تكن بينه وبين زعيم الهند المهاتما غاندي أية علاقة حيث كان غاندي هندوكياً .

(٢) حبّذا لو تمكن القارئ من فهم القانون والسُنّة مجرّدين من الأشخاص ، فقد تتماثل الدوافع مع تغير المكان والزمان والأشخاص ، ولا تتغير الحقائق ، ولا يتغير شيء من الحقائق أبداً ، وهذا ما قال الله عنه : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ [البقرة : ١١٨/٢] ، ولا نقصد هنا من ذكر الأسماء سوى الاستعانة لفهم الموضوع بالأمثال . وكما قال الأقدمون حين كانوا موضوعيين : (مناقشة الأمثال ليس من دأب الرجال) ، وإن الأشخاص المذكورين هنا هم الذين كانوا في بؤرة المسرح حين كتب هذا الموضوع .

وحين أقول هذا ، فأنا أبعد الناس من أن أحُطَّ من قَدْرِ أخٍ معين ، أو أختٍ معينة ، وإنما أصِفُ مجتمعاً يعجز عن أن يمدَّ الفرد الذي ينشأ فيه بالشروط الضرورية للتوازن الصحيح في المجتمع البشري الذي لا يشعر بأنه يساهم في بنائه بشيء مهما كان يسيراً .

وهذا المجتمع ليس ممثِّلَهُ فلان وفلانة فقط ، وإنما أُمثِّلُه أنا ، وتُمثِّلينَهُ أنت ، وحين يختلط الأمر علينا فلا نعرف جوانب النقص فينا ، يحول ذلك بيننا وبين أن نتخذ الموقف الصحيح في كثير من أمور حياتنا ، وإن إمكان إصلاح نقائصنا ليس بإنكارها ، ولا بإخفائها ، وإنما بمواجهتها بصراحة ، لأن الكتمان ليس بدء الشفاء ، وفي هذا الموضوع بالذات ، وعند هذه النقطة أيضاً ، أريد أن لا يُفهَم الموضوع على أنه نقد لاذع مُوَجَّهٌ إلى شخص معين ، فليس هذا موضوعي البتة ، وإن كان سبباً في أن أتناول الموضوع على سعته وعمقه ، وهذا الذي أريد أن أنَبِّهَ إليه كي يؤتي البحث أُكُلَهُ وفائدته ، لاأن يُصْرَف إلى حادثة جزئية .

وثمة شيء آخر أشعر أنه ينبغي عَلَيَّ التنبيه إليه أيضاً ، وهو ضرب المثل بـ (غاندي) أو (نهرو) أو (أنديرا) ، فالمسلم يشعر بوخزٍ في نفسه حين يسمع بهذه الأسماء ، أو بنوع من الاستكبار ، أو الترفُّع ، أو الكبرياء المنحطَّة ، ولا سيا حين يسمع ذلك في صدد

البحث في المشكلة الإسلامية ، فكيف أختار الْمَثَلَ ـ لموضوعي ـ من نماذج المجوس ، وليس من نوع آخر ؟!!

الواقع ؛ إن الموضوع إن لم يُشْرَح بشيءٍ واقعي يصدم نفس المسلم ، ويهزّه ، لا يكون مجدياً في إيقاظه وشفائه ، بل لا يساعده على تقريب الموضوع .

فإذا كان المجال الإسلامي الذي نعيشه في حالة منبوذية ، فالأَوْلى أن نُذَكِّر المسلمَ بما يشعرُه بذلك ، ويساعده على أن يخجل من نفسه ، لاأنْ يَستمرَّ في غروره ، فينبغي أن يَعْلَم المسلمُ المستوى المتوازنَ الذي وصل إليه في هذا العصر ، حتى المنبوذون من المجوس ، بينما نحن نضطر إلى أن نذكر أسماءهم ومثالهم للمسلم ليتمكّن أن يحصل (هو) على التوازن ، أو الشعور بالذات الذي فقده ، فالمسلم فقَدَ ذاته ، ونَسي نفسه ، وجهل العالم الذي يعيش فيه ، فهو تائه حائر .

وهنا نستوضح الدَّرْكَ الذي انحدر إليه المسلم ، فالذين يريدون أن يرفعوا من نفس المسلم المتهاوية ، ينبغي أن يَعْرِفوا أنها في القاع والقعر ، ولا أعني أبداً استحالة انتشاله ، بل أعني أن انتشاله لا يكون بشعوذات غبيَّة ، ولا بفرنجات عفوية ، وإنما يكون بمعرفة سنّة الله ، فمعرفة السُّنة هي المعجزة ، وبتطبيق القانون والسُّنة سنحصل على أكبر

ما يمكن تصوّره عند منتظري المعجزات ، أو ما تأتي به الظروف والحظوظ التي يحلم بها أصحاب أحلام اليقظة الذين : ﴿ .. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ .. ﴾ [الكهف : ١٨/١٨] .

أيتها الأخوات المؤمنات :

سِرْنَ بجدٍّ ونشاط لفهم الحياة ، ولفهم هذا الكون في الآفاق والأنفس ، وستَصِلْنَ بذلك إلى نتائج حسنة ، وإن هذه المرحلة التي نعيشها ، ونعالج فيها هذه المشكلات التي تعترضنا وتضطرنا إلى التفكير فيها ، وإن هذه المشكلات وهذه الأسئلة المحرجة التي توضع أمامنا ، إن هذا كله معناه : أننا نواجه المشكلة مواجهة سافرة ، فلا تَراجُعَ ، ولا تردُّدَ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩/٢٩] . فسِرْنَ والله مَعَكُنَّ ..

وإن زادنا في حلِّ المشكلة ، وفي هذه المواجهة ، يكون بمقدار ماعندنا من صبر وجَلَدٍ على تَفَهُّم القضيَّة ، ومصدر الصبر والجلد هو : (اليقين بأن الطريق الذي نسير عليه ، يؤدي إلى الهدف الذي نسعى إليه)[١] ، فقد يكون عندنا هدف ، ولكن ليس عندنا اليقين بأن هذه الطريق موصلة إليه ، فلا نصبر على السير فيها .

---

(١) أي تأمل الأحداث البسيطة التي تقع تحت سمعنا وبصرنا ، ومعرفة أسبابها ، =

وقد لا يكون عند أحدنا هدف واضح ، فلا يرى الفائدة من المسير إليه . إذن مشكلتنا في النهاية ترجع إلى وضوح الهدف الذي نسعى إليه ، وإلى اليقين بأن الطريق الذي نسير غليه هو المؤدي إلى هذا الهدف ، هذا جوهر الموضوع . ومعنى وضوح الهدف يختلف حسب مستواه ، سواء : في الأسرة ، أو في المجتمع الخاص ، أو في المجتمع العالمي .

فعلى مستوى الأسرة ينبغي أن يكون الهدف مما يرجع بالعائد الحسن عليها ، كأن يقلّل من مشكلاتها ، ويرفع من مستواها . وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع الخاص ، أن يكون الهدف محقّقاً لخيره ، مزيلاً لشروره . وعلى المستوى العالمي ينبغي أن يكون تحقيق هذا الهدف هو الذي يحلُّ المشكلة العالمية المعقّدة اليوم .

فيما سبق أشرت إلى جانب مما يفقده المسلم في مجتمعه ، الذي يعجز أن يقدم له توازنه ومسوّغات حياته في المجتمع البشري ، ولكن أريد أن أشير هنا إلى جانب آخر يعجز فيه المجتمع أن يقدّم للفرد الذي ينشأ فيه مسوّغ موته ، فكَمَا يعطي المجتمع للإنسان مسوّغ حياته ، كذلك يعطيه مسوّغ الموت إذا اقتضى الأمر ، فإذا عجز المجتمع أن يقدّم لمن

= والانتقال منها إلى أحداث أخرى معقدة أكثر منها ، إلا أنها مثلها أيضاً في إمكان رؤية أسبابها ، وهذا ما نحن بصدده .

ينشأ فيه وظيفة معينة ، يمكن أن يخدم بها المجتمع البشري ، فإنـه يجعل من الفرد الذي ينشـأ فيـه فرداً مقلّـداً ، يبـدأ التطوُّر ، أو التقليـد من عند رجليه ، كالزعماء الذين أشرت إليهم ، لا كما وقف غـانـدي شـاهـداً على العصر ، ومنذراً له بـالثُّبور ، إن لم يقلع عن أفكاره ، فهـذا الرجل استقى من مجتمعه ومن المجتمع العالمي مـا أمكنـه أن يحرِّره من التقليـد ، فكان يوجِّـه اللوم العنيف لمواطنيـه الـذين يقلِّـدون الغرب في قوانينـه وملابسـه ، وحتى في آلاته ، كما شرح آراءه في كتابه الـذي أسماه : (هـذا مذهبي) أو (حضارتهم وخلاصنا) ، وأوضح أن كُرهَةَ للإنكليز لم يكن بسبب لـون بشرتهم ، (كما يكره الأمريكيـون البيض الـكان الزنـوج) ، وإنما كان يكرههم بسبب أفكارهم التي يمثلـون بها فرعـون حين علا في الأرض ، وجعل أهلها شِيَعـاً ، يستضعِف طـائفـة منهم : يُذبِّح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، كان غـانـدي يكره هـذه النفسيـة ، وهذا السلوك ، وهو لذلك أيضـاً كان يكره كل هنـدي يريـد أن يصير مثل الإنجليز ، وكان يقـول للهنـود : « إذا كان كرهنـا لـلإنكليز أنهم في بلادنـا ، وإذا طردنـاهم سنصير مثلهم ، فلا يقلُّ كرهي للهنـدي الـذي يستذلّ إخوانه عن الإنكليزي الذي يستذلّ الهندي » ، لأن عـدم التمييز بين هذَيْن الأمرَيْن والخلط بينهما يؤدي إلى عـدم ارتفـاع الـذّل ، حين يرتفـع الاستعمار عنهم ، لأنهم لم يرفعـوا الـذّل عن أنفسهم ، فلم يكن

سعيهم لرفع الذّل ، وإنما لطرد الإنكليز ، فيمكن أن يُطْرَد الإنجليز ويبقى الذّل مع ذلك ، ولكن إن طَرَدوا الذّلَّ ، فلا يمكن أن يستغلَّهم بعد ذلك لا الإنكليزي ولا الهندي ، ولا يمكن أن يَحُلَّ الأمريكان محلَّ الإنكليز بعد ذلك ، وفي النهاية سيخلّصهم ذلك أيضاً من اتّفاق الروس والأمريكان على إذلالهم .

وأشعر أنه ينبغي أن أُنبّه إلى شيء آخر في الموضوع أيضاً ، وهو : أن المسلم اليوم لا يمكنه أن يفهم الشيء إلا طاهراً مُقَدَّساً ، أو دنساً حقيراً[1] ، أما أن يعرف الفَضْلَ لأهله على حسب ما عندهم من الفضل والميّزات[2] ، فليست عند المسلم هذه المقدرة ، وهذا ما يهوّن عليه أحياناً أن يشهد شهادة زور على نفسه أو على غيره : على نفسه حين يحقّرها ، أو حين يُعَظّمها أكثر من اللازم ، وعلى غيره كذلك حين يبخسه حقه[3] ، أو يقدّره فوق قدره ، وبذلك يشوّه الحقيقة في كلا

(١) ومن الاتجاه الثقافي الذي كوّن هذا الموقف : (إعطاء الأحكام مجرّدة عن مسوّغاتها أو أدلّتها) كما هو الحال في أغلب كتب الفقه والفتاوى .

(٢) ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [سورة النّجم : ٥٣/٣٢]
﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [سورة الضُّحى : ٩٣/١١]
وهنا ينبغي أن نعرف مكان استخدام كلٌّ منها ، فليس من التواضع أن يخفي الإنسان علمه ، بل أن يحدّث بنعمة ربّه دون أن يزكّي ، أو يمدح نفسه .

(٣) ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [سورة الأعراف : ٧/٨٥] .

الحالَيْن ، لأنه فَقَدَ المقياس ، والذي يفقد المقياس يبتعد عن الإنصاف في الإفراط أو التفريط في أحكامه ، وهذا ما جعلنا ننظر إلى الهند باحتقار دون أن نعرف لها ميزتها عن غيرها .

والذي يدعوني إلى هذا القول هو ما أريد أن أُنبّه إليه : في أن يقف المسلم عَدْلاً في الوسط ، لا في جانب أحد الطرفَيْن ، فحين أذكر للهند فضلاً فليس معناه أن الهند صارت منزهة عن الأخطاء ، ولكن : أليس مما يمتازون به في الهند أن يكونوا في وضع يضربون لنا فيه المثل في إمكان إعطاء قدرة التوازن للمجتمع ؟ أليس حسناً أن يمثل المقياس الذي يمكن أن يُرى فيه الفرق بين مجتمَعَيْن ؟ لأن التفاوت يمكن أن يُلاحَظَ حتى في التقليد ، فالغارق حتى أُذنَيْه غير الذي يصيبه بعض الرّذاذ . وإلى جانب ما أبدَيْت من ملاحظة في إمكان محافظتهم على توازنهم في لباسهم الوطني ، كذلك لم تسقط الهند بعد في الديكتاتورية التي ركعت لها معظم الأمم ، فإذا أمكننا أن نلاحظ هاتين الملاحظتين البسيطتين ، والعيِّنتين الملموستين لكل مراقب دون كبير عناء ، إلا أن وراء هذه الظواهر شيئاً يصعب على المسلم إدراكه

لِمَ كانت الهند هكذا ؟ ولِمَ استطاعت أن تحتفظ بتوازنها ، ولو لمدة أطول قليلاً من غيرها ؟ ولِمَ تأخّرت في السقوط في الهوّة ؟ - هذا إذا لم يكتب لها أن تتجاوز الهوّة بسلام أيضاً - إن ذلك يرجع فيما أرى

إلى أن موقف زعمائها وقادتها الروحيين لم يكن مثل موقف زعمائنا وقادتنا المسلمين ، فإن إمكان رؤية الأسباب التي وراء هذه المظاهر ، هو العقبة التي تتقطع عندها قوة احتمال المسلم في البحث عن أسباب الأحداث[1] .

والذي أشْكَلَ على الأخوات هو : (لِمَ لَمْ تستطع الأخت المسلمة الاحتفاظ بالتوازن ؟ وما الشيء الذي ينقصها ؟) . إن كشف هذا النقص في مستوى المجتمع يحلُّ كثيراً من مشكلاتنا ، وكذلك يعرِّفنا أيضاً : لِمَ استطاع الآخرون أن يحتفظوا بالتوازن في الموقف الذي لَمْ تساعدنا فيه طاقاتنا على التماسك ؟ وهنا نعرف معنى سبب المناعة ، ونعرف الطعم الواقي ، أو نوعاً من التلقيح الثقافي والاجتماعي الذي يقي الفرد والمجتمع من الأمراض الاجتماعية التي رأينا من مظاهرها ما رأيناه .

هذا الموضوع هو الذي جهد فيه مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ من أجل أن يُقرِّب فهمه للمسلمين ، ولكن كثافة الحجب الموجودة على أعين المسلمين من جانب ، وصعوبة الأسلوب الذي اتّخذه مالك من

---

(١) كتب هذا الكلام في عام ١٩٦٨ ، وإن أحداث عام ١٩٧٧ في (محاولة أنديرا غاندي فرض الأحكام العرفية ثم سقوطها في الانتخابات) تَدْعم كلامي ولا تنقضه .

جانب آخر هما اللذان حالا دون أن تُحْدِثَ كتاباته ذلك الأثر الذي كان ينبغي أنْ تُحدِثه .

إنني لم أختر في ضرب المثل الذي ذكرته مَثَلَ اليابان والصين ، لأن كلاًّ منهما قَلَّدَ الغرب وما رفع من مستواه ، وواقعنا نحن أسوأ من مثل اليابان والصين ، لأن كلاًّ منهما بدأ تقليد الغرب من الرأس (في التكنولوجيا) ، بينما نحن بدأنا التقليد من الأسفل (استيراد الأشياء) ، وكنّا زبائن نشتري ، وكانت الصين واليابان تلاميذ يتعلّمون[1] ، ووقفنا نحن عند العنق ، مَثَلُنا مَثَلَ المتحشرج الذي كاد يختنق .

إن موقف الهند يمكن أن يُرَى فيه اختلافه عنّا ، وعن الصين واليابان ، وكذلك أُكرّر أن الهند لم تكن النموذج الكامل في الموضوع ، وإنما فقط كانت مثلاً يمكن أن يُقرّب لنا حالة خاصة ، وهي أن الهند لم تَقْبَلْ أن تُقلِّد : لا من الرأس (التّكنولوجيا) كالصين واليابان ، ولا من الرّجلين (استيراد الأشياء) كالبلاد العربية والإسلامية ، أقصد : استيراد الأشياء الاستهلاكية ، بل أرادت الهند أن تُدينَ العالم في اتجاهه ، وتَخُطَّ لهم خَطّاً جديداً في الحياة ، غير الذي تعوَّده العالم ،

---

(١) راجع كتاب (في مهبِّ المعركة) للأستاذ مالك بن نبي ، فصل : (الأفكار الميتة ، والأفكار القاتلة) ؛ دار الفكر ، دمشق ، ط ٤ ، ١٩٩١ م .

وهذا فضلاً عن أنه جديد لا عهد للناس بـه ، فليس من السهل السير في مثل هذه الطرق الجديدة ، وإذا أردنا التدليل على أن الهنـد لم تكن في المستوى المطلوب ، فإننا نرى زعيمها الذي كان يدعو الشعب الهندي إلى (طريق الحقيقة) كما كان يسمّيه ، قـد مـات مغتـالاً على أيـدي الهنود أنفسهم ، كما إننا نَلْمس التّردد الـذي يصيبهـا في سيرهـا ، والـذي يمكّن البعض من أن يتجاهل أو ينكر مزاياها .

وأرجعُ إلى الجـزء الـذي ينقص المسلم من الصحـة الاجتماعيـة التي تمكّنه من الاحتفاظ بالتوازن بين المبدأ والواقع مبتدئين من مثل يُقَرِّب الأمر إلى أذهاننا .

وأنا أغتنم الفرصة التي تَنَبَّهَتْ فيها ملاحظَةُ الأخوات لهذا الحدَث الخاص ، والذي دعاني للكتـابـة في هـذا الموضوع ، فمثلاً : إذا تصوّرنـا ما تجده الفتاة حين تريد أن تلبس اللباس الإسلامي من عقبات ، فإننا نجد :

١ ـ والدتها ، وأفراد أسرتها .

٢ ـ وإذا مـا استطـاعت أن تجتـاز المرحلـة الأولى بسـلام ، تـأتي العقبة من المجتمع في المدرسة ، والشارع ، والوظيفة ، و ... إلخ .

٣ ـ وإذا ما اجتازت ضغط جوّ الأسرة ، وجوّ المجتمع والبلد الـذي

تعيش فيه (مع التّفاوت في مقدار الضغط) ، وتيسر لها الانتقال إلى المجتمع العالمي ، فإنها تكون أمام جوّ جديد بقيَمِهِ ، وعاداتِه ، وأفكاره ، وأخلاقه .

ففي هذا المجتمع العالمي ستشعر بضغط أشد من ضغط المرحلة السابقة ، وهنا تكون ذروة الضغط ، وربما يرفع الشيطان مستوى الضغط (لكلٍّ على حسب مرحلته) ، لأنَّ حرص الشيطان على منع نشر الحق شديد ، فإبقاء الأمر في جوِّ الأسرة فقط هو أهْوَنُ من الخروج إلى الشارع والمدرسة والجامعة ، والبقاء في المجتمع المحلي أقلُّ درجة من ارتفاع قدرة المسلم على الاحتفاظ بالتوازن في المجتمع العالمي ، وإن أقوى إغواءات الشيطان آخرها ، فمن لم يتغلَّب عليه الشيطان في مرحلة ما ، يحاول أن يتغلَّب عليه فيما بعد في مرحلة أخرى ، وسُبُلُ الشيطان كثيرة :

﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وعَنْ أَيْمَانِهِمْ ، وعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦/٧-١٧] .

ولكن يمكن أن نرى الأسباب التي تُيَسِّرُ وتهوِّنُ عمل الشيطان الخفي ، والذي لا يمكن أن يراقب أعماله ومداخله إلا المخْلِصونَ من

عبــاد الله ، والــذين هم على بصيرة ، والــذين يسيرون على قــدم رسول الله ﷺ ، وبالتـالي هم الـذين يمتلكـون سُبُـل تجنُّب إغـواءات الشيطـان ، فهـذا البـاب الـذي فتحـه الله لنـا للهرب والتخلُّص من الشيطـان ، بـل ولطرد الشيطـان منـه ، وهـذه القـدرة في التمرد على الشيطان هي هِبَةُ الله العظيمة للبشر ، ومكانة كرامة هذا الإنسان عند الله ربّ العالمين :

﴿ إنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيهِمْ سُلْطَـانٌ ، إلاَّ مَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الغَـاوِيْنَ ﴾ [الحجر : ١٥/٤٢] ، إلا من اتبعـه بـاختيـاره واستِسهـالـه لطريقة الشَيطـان ، والشيطـان يعترف : ﴿ وَمَـا كَـانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَـانٍ ، إلاَّ أنْ دَعَـوْتُكُمْ ، فَـاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَـلا تَلُـومُـونِي وَلُـومُـوا أنْفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : ١٤/٢٢] . فهذا الشيطـان الـذي يفقـدنـا توازننـا في هذه المواقف ، يمكن التغلُّب عليه ، بل ويمكن طرده من مجتمعنا ، فإنه لا يستطيـع أن يمشي في الطريـق الــذي كان يمشي فيــه عمر رضي الله عنه ، لأن عمر يملك توازناً صحيحـاً واعيـاً ، لقـد فتح عمر العـالم ، ولم يُقَلِّـد العـالم المعـاصر لـه ، بـل نقـل إلى العـالم مـا العـالَمُ محتـاجٌ إليـه ، فـأخرجهم من أن يكونـوا عبيـداً للشيطـان ، أو لبعضهم بعضـاً ، وإن عمر كان قد أخذ هذا التوازن من رسول الله ﷺ الذي أسلم شيطـانـه ، وقد عَلَّم رسول الله ﷺ صحابتَه والناس : كيف يتَحَرَّرون من غوايـة

الشيطان ، فأنار للناس الظلمات التي نشهدها الآن ، ورجعنا إليها من زمان بعيد ، وصار للشيطان فينا دولة وسلطان ، ولقد كان الشيطان يائساً من أن يُعبَد ، وكان يخاف من عمر ، فإذا سلك عمر فَجّاً ، سلك الشيطان فَجّاً غير فَجِّه ، كما كان رعب الشيطان عظيماً عندما كان ربعي بن عامر رضي الله عنه يتحدَّث في مجلس قائد الفرس ، وحين كان هذا الصحابي يمزّق الْحُجُب التي تمكّن الشيطان من التسلُّط على البشر ، ومن جَعْلِ سلطانه عليهم مُحْكَماً .

كأني شَرَدت عن الموضوع الذي كنت أبحثه ، وهو الضغط الذي يلاقيه المسلم من الجِنَّةِ ، ومن الناس الذين حوله يوسوسون إليه حين يريد أن يسلك سبيل الله .

إن فهم الضغط على المسلمة في لباسها واضح للأخوات ، لأنهنَّ يَعِشْنَ هذا الأمر ، ويَفْهَمْنَ مهمة الشيطان التي مارسها مع آدم عليه السلام أبي البشر وزوجه ، ويَشْعُرْنَ بوسوسته ، ولكن : كم يكون مفيداً لو عرفنا السبب الحقيقي لهذا الضغط الذي ليس على الجلباب فقط ، ولا على التي تلبسه ، وإنما على المسلم أيضاً حين يصير ممثِّلاً للمجتمع الإسلامي وللبلاد الإسلامية ، فإن الضغط الذي يرفع الشيطان مستواه إلى درجة عالية قد يضطر البعضَ إلى تقديم القرابين للشيطان رُعباً منه أو تَقَرُّباً إليه .

هـذه الضغوط المختلفـة الـدرجـات هي خطـوات الشيطـان التي يخطوها في بَسْط سلطانـه على أتبـاعـه ، فنرى من آثـارهـا : هنـا خَلْعَ جلبـاب ، وهنـاك تَرْكَ فريضـة صلاة ، وهنـا فراراً من تعليم القرآن ، وهناك هروباً من الأمر بالمعروف ، وهنـا تقـديمـاً للقرابين على قَـدَمي الشيطـان .. خطـوات متتـابعـة ، كلهـا حلقـات آخـذ بعضهـا برقـاب بعض ، إن فكرة عبادة الشيطان ليست فقـط في الأخبـار التي نسمعهـا من بعض المجتمعات المتخلِّفة ، ولكنها طريقـة معينـة ، وموقف خـاص من الشيطـان ، وهي أيضاً تمـارس على مستـويـات مختلفـة ، وإن أشـد إغواءاته آخرها ، والشيطـان أيضـاً يَتَحَضَّرُ ، ويترق مع تَرَقِّي العصر ، فيبتكر أسـاليب شيطـانيـة راقيـة منـاسبـة للقرن العشرين ، وكيف لا يكـون ذلـك ؟ وقـد تمكّن بـالفعـل من إحيـاء عـادة تقـديم القرابين البشرية في القرن العشرين ، على أعتابه ، وهو بـاسمٌ قرير العين ، بل صار يختار نماذج من القرابين لا يَرْضى بغيرهـا ، وهكـذا كان شـأنـه فيما سبق ، فلم يكن يقبل إلا أجملَ الفتيـات في القرون الغـابرة ، حين كان يمارس الفراعنة هـذه العبـادة لـه ، فَيُقَـدِّمون قربـانهم على نموذج معيَّن حين يُلقون ملكة الجمال في مياه النيل .. إلى القاع والموت ..

ولكن ينبغي أن لا ننسى أن الشيطـان تَمَكَّن من هـذا لأننـا لم نَتَفَهَّمْ جيداً سُنَّةَ الخلاص من مكائده ، مع أن كيـد الشيطـان ضعيف ،

ولا يقابله في الضعف إلا الغفلة والبلاهة التي نبْديها إزاء دراسة سنّة الخلاص من غواية الشيطان وطرقه الملتوية ، التي يُلْبس بها الأمر علينا ، فيَظْهَرُ لنا في كلٍّ مرة بلون ، كما بيَّنَ ذلك محمد إقبال ـ رحمه الله ـ فقال :

تَلَوَّنُ[1] في كلِّ حال مناة[2] شاب بنو الدَّهر وهي فَتَاةَ

(١) أي تتلوّن .

(٢) مناة : اسم صم اتّخذه المشركون إلهاً .

الفصل الثاني

عالَمُ الغيبِ وَعالَم الشَّهادة

﴿ قَالَ : أوَلَمْ تُؤمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

[البقرة : ٢/٢٦٠]

ورد في الفصل السابق جملة (المجتمع الذي يعجز عن أن يقدّم للفرد الناشئ فيه توازناً ، أو ما يعيد إليه توازنه) .

فكيف يحصل المجتمع على هذه القدرة ، وعلى هذا الرصيد ، الذي يمكنه من أن يدعم الفرد الناشئ فيه ؟ هنا نحتاج مرة أخرى إلى مَثَلٍ يقرّب الموضوع .

إن الفتاة حين تلبس الجلباب الإسلامي ، تجد العناء في بيتها ، وفي المجتمع الخاص كالمجتمع العربي ، ثم تجد صعوبات أكبر عندما تنتقل إلى المجتمع العام العالمي .

إن الفتاة المسلمة التي تريد أن تحترم المثل الأعلى للإسلام ، تعاني

من صعوبات وعقبات كثيرة ، تقصم ظهر الكثيرات ، إلا أننا نشاهد نماذج تتغلّب على عقبات الأسرة ، وعقبات المجتمع ، و يمكن أن نلاحظ أن كل عقبة أصعب من التي سبقتها ، ولكن يمكن أيضاً ملاحظة اللواتي استَطَعْنَ المقاومة ، واقتحام العقبة ، ويمكن أن يقع تحت ملاحظتنا وإدراكنا كل خطوة تخطوها الفتاة في مقاومتها النبيلة هذه ، والأشياء التي تعتمد عليها حين تَتَمَسَّك بمثلها العليا .

وهنا أتذكر ياأختاه ملاحظتكِ التي كنتِ قد حدثتني بها في مناسبة ما وتذكرك لمراحل معينة ، وتجارب خاصة مررت بها ، ولست أدري ، إن كنتُ قد أصَبْتُ حين قَسَمْتُ الأمر إلى مرحلَتَيْن : سمّيت الأولى : مرحلة (الإيمان بالغيب) ، والثانية : مرحلة (الإيمان بالشهادة) .

المرحلة الأولى :

يوم كنتِ تملكين القدرة على تحدّي العالم والتضحية بكل شيء في سبيل الخلاص الأُخروي ، ونيل مرضاة الرَّب ، وكفى .. بصرف النظر عن أي شيء آخر من متاع ومتع الحياة الدنيا .

تذكرين مزايا هذه الحالة من الذوبان ، والعيش في كنف الرحمن ، ولا شك أن تحصيل هذه الحالة جيد جداً ، ويمتاز بطعمه

الخاص ، وحلاوته في القلب ، وأنها أيسر انتقالاً وحملاً وانتشاراً ، لأن في الإنسان شيئاً يساعد على قبولها عموماً ، إلا أن هذه الحالة مع ما لها من حلاوة الذوبان ، كذلك لها من مرارة الشعور بالحرمان الخفي ، وفيها نوع من السلبية ، وعدم القدرة على التأثير الإيجابي ، وهذا ما يجعلها محدودة المدى ، فاقدة السلطان ، تنبئ بجانب من النقص . ويمكن القول : إنها إيجابية من جانب الطُّهر والتضحية ، وإنها سلبية من ناحية كونها تجربة وجدانية فردية ، والإنسان في هذه الحالة يرافقه ولا شك انصراف عن المجتمع مشحون ببغض له ، أو بيأسٍ منه .

هذه الحالة .. يجب أن يستفاد منها ، ولا يتوقف عندها ، فهي مرحلة ضرورية يمكن فهمها من خلال قول الأصحاب رضوان الله عليهم : « أُوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن » ، أي : إننا قبلنا الاتجاه الإيماني ، قبل أن نتفقَّه في الدِّين .

والمهم هو الانتقال إلى الحالة الثانية : رؤية آيات الله في الآفاق والأنفس ، والتي ندعم بها إيماننا ، مع هذا الصفاء القلبي والنفسي نكون قد تمتعنا بالإيجابية والعلمية ، واتخاذ المواقف السليمة .

وكما أن الإيمان بالغيب يعطي قوة التماسك ، كذلك فآيات عالم الشهادة تزود الإنسان بنوع آخر من التماسك ، ومما يؤسف له أن النوع

الأول لا يطمع في أن يغيِّر الـواقـع ، ولا في السيطرة على آيـات الله في الآفاق والأنفس ، وتزويد الناس بما هم في حاجة إليـه ، وبـاختصـار : يجب دعم الإيمـان الغيبي بـالله والكتـاب ، بـآيـات الآفـاق والأنفس ، ليأخذ الإيمان صبغته الإيجابية على المستويين : النفسي ، والاجتماعي .

المرحلة الثانية :

وأما هذه فيمكن أن نسمِّيها : مرحلة الإيمان بالشهادة ، أو مرحلة الوعي ، أو مرحلـة فهم أنَّ مـا يـأمر بـه الله هو الـذي يقتضيـه العقـل والفطرة ، وعين الصواب . فـالوصول إلى هـذه المرحلـة وتحصيـل هـذا الوعي يعطي لذاك الذوبان بريقاً خاصاً لا يملـك الإنسـان أمـامـه إلا الاعتراف والإقرار ، فهـذا النوع من الـوعي لأمر الله هـو الـذي يعطي التوازن للإنسـان في جميع المستـويـات ، في الأسرة ، والمجتمـع الخـاص ، والمجتمع العالمي .

وكلمـا ازداد الإيمـان بـالغيب ، والإيمـان بـالشهـادة ، وتكامـل الجانبان في الموضوع زال الجانب السلبي ، وحلّت الفعالية محلّه .

وإنني لأتذكر : كم كان واضحاً لـديـك شعورك بهـاتين المرحلتين في حياتك ، وينبغي أن نكون أقـدر على التعبير ، وكشف الأمور التي ساعدت على الوعي ، فهذا الوعي هو الذي يسـاعـد على التوازن في كل

مجتمع ، وهذا الوعي هو الذي يرفع الشعور بالمنبوذية ، كما أن هذا الوعي هو الذي يعطي للإنسان هذا المسوّغ للوجود ، وهو الذي يمكّن من رؤية جانب النقص في العالم . ومن رؤية ما يملكه الإنسان مما يحتاج إليه العالم ، وإذا كان هذا الوعي يعتبر في الماضي مزية ، فهو الآن ضرورة ، لأنه هو الذي يدعم الإيمان بالغيب حتى يصير له البريق المفقود الذي لم نعد نراه ، وهذا الوعي هو الذي نحن في شوق إليه ، وعند تحصيل هذه الحالة النفسية ، سوف يشعر الإنسان بالأناقة وبالعزّة وكرامة الإنسان ، مهما كان مجرّداً من الأعوان ودعمهم : أشخاصاً كانوا أم أشياء ، وسيغدو كما قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النّحل : ١٦/١٢٠] .

وهذه الحالة هي التي كانت تدعم بلالاً رضي الله عنه أثناء محنة المسلمين في مكة ، وهو مجرد من دعم الأشخاص والأشياء ، لأنه كان يستلهم الأناقة من عالم الأفكار (الإيمان) ، لا من عالم الأشخاص ولا من عالم الأشياء ، وتحصيل هذه الحالة اليوم لأي فرد سيعطيه هذا الثبات ، مهما كان مجرداً من السند ، ودعم الأشخاص والأشياء له .

وبروز هذا الوعي ، وانتشاره في المجتمع ، هما اللذان يعطيان التوازن المفقود لدينا ، وحين تقل كمية الوعي الموجود في المجتمع يظهر عدم التوازن في أفراده في مجالات شتى ، ومجموعهُ يؤدي إلى شيئين

خطيرين كانت الأخت المسلمة قد أوجزتها لا شعورياً في هاتين الحالتين النفسيتين ، واللتين تعتبران نتيجتين لا سببين . وهما :

١ ـ الشعور بالمنبوذية .

٢ ـ الشعور بضرورة الهرب من المجتمع ، والاحتباس في البيت .

ومثل هذه النتائج لسنا في حاجة إلى مزيد من شرحها وبيانها ، لأنها مدركة بالشعور ، ومرئية بالعين ، وإنما الشيء الخفي هو : القدرة على تحصيل الوعي ، فهو لا يُدْرك بالشعور ، ولا يرى بالعين ، وخفي من وجه ثالث حيث إننا مقتنعون بأنه لا يمكن كشف خطأ عند العالم المتقدم ، وكشف صواب عندنا ، وبذلك يتم طمس إمكانية الفهم تماماً ، ويتم اغتيال مقياس الكشف .

ولعلك تذكرين كم كنت أطيل البحث في الإخلاص والصواب ، في القلب والعقل ، في الضمير والفهم ، إلى آخر المصطلحات الكثيرة التي كنت أوردها في بحث مشكلة المسلمين ، فإن كمية الصواب التي عند الإنسان قد تكفي في مرحلة ما ، لإعطاء التوازن للإنسان في مرحلة الأسرة ، أو المجتمع الخاص ، إلا أن كمية الصواب تحتاج إلى نوعية معينة لإمكان السير في طرق وعرة مع القدرة على التوازن وإلا فسيسقط الإنسان صريعاً على وجهه ، أو على أي جانب آخر . وكما يسقط

الإنسان الذي فقَدَ توازنه الجسدي والطاقة الحيوية في الجسم ، فكذلك إن فَقَد مجموعة الطاقة الفكرية التي تكون الوعي ، فإنه يفقد التوازن الذي أنا بصدد بحثه ، والذي أشرت إلى بعض نتائجه المختلفة في مستويات عديدة بدءاً من أنواع الصراع الذي ذكره الله في القرآن الكريم : ﴿ .. الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥/٢] .. وانتهاءً بالوسوسة في طلب القربان ، وسيحظى الشيطان به لأنه قد نجح من قبل في الإخراج من جنة التوازن ، وخلع لباس التوازن ، فبدت العورات والسوآت ، في المجالات كلها ، والمشكلة كما أشرت إليها في أن النتائج مرئية بالعين ، فنحن نشاهد السّوآت مكشوفة في الشوارع ، ونسمع ـ إن لم نَرَ ـ بأخبار القرابين التي تقدم ، وأخبار الجبهات الإسلامية التي يتم تسليمها ، وانحسار المسلمين عنها ، لكننا لا نتمكن من رؤية الأسباب الخفية لأنها كالشيطان تجري في العروق ، وكالشيطان ـ مرة أخرى ـ لأن رؤيتها لا تتم بالبصر ولا بالسمع ، وإنما يكون إدراكها بالعقل والوعي ، لأن من طبيعة الشيطان : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧/٧] .

ونرجع مرة أخرى إلى تأمل حدثٍ خضع لتجربتنا ، وهو الانتقال من مرحلة الإيمان بالغيب فقط ، إلى مرحلة الإيمان بالغيب

على أساس من دعم عالم الشهادة .

والإيمان بالغيب على درجات ، والذي عنده إيمان بالغيب يستطيع أن ينقذ نفسه ، على قَدْرِ ما يملك من الإيمان ، وهذا القدر يتفاوت من مثقال ذرة من الإيمان ، إلى أن يصل إيمان الفرد إلى إيمان يوازن إيمان أمّة بأكملها .

والإيمان بالغيب الذي لا يصحبه إيمان بعالم الشهادة قد ينقذ الفرد ، لكنه لا يمكن أن يؤثّر في الآخرين ، وأن ينال إعجابهم ، ولهذا نجد في القرآن الانتباه إلى أهمية عالم الشهادة حين يأمر الناس أن ينظروا في الأرض والأُمم ، كي يروا عالم الشهادة ، حيث فيه صدق ما جاء من عالَمِ الغيب ، ولهذا أيضاً نستطيع أن نقول : إن التبشير في العالم الإسلامي قد تَوَقَّف بسبب قلّة بضاعته من عالَم الشهادة .

وبقدر ما يحصل المرء من إيمان بالغيب وبالشهادة معاً يتمكن من اجتياز العقبات ، واقتحامها ، وهداية الآخرين ، والتأثير فيهم ، وبما أن الإسلام جعل أدلة عالم الغيب من عالم الشهادة كان القرآن بذلك خاتم الكتب السماوية أولاً ، وللناس كافة ثانياً ، وهذا ما يحقّق له أن يظهر على الدّين كله .

إن إدراك الانتقال من الإيمان بالغيب إلى الإيمان بالشهادة يمكن

أن يتحقق لكل من الفرد والمجتمع ، فـالفرد الـذي جمع الإيمـان بـالغيب والشهادة ، ينتقل من الانتصار على عقبة الأسرة في إنقاذ نفسه أولاً ، ثم يرتفـع شيئـاً فشيئـاً إلى إنقـاذ الأسرة ، لا مجرد المخـالفـة وإشبـاع المثـل الأعلى ، ويمكن أن نضرب مثـلاً للفرد الـذي تغلب على مجتمعـه المحلي ، ودخل المجتمع العالمي بـ (محمد إقبـال) ـ رحمـه الله ـ بمـا امتـاز بـه من إيمان بالغيب ، وإيمان بالشهادة . وبهذا استطاع أن يحصل على التوازن الذي مكّنه من مقابلة المجتمع العـالمي بـدون مركّب نقص ، وهـذا يمكن أن يفهمه كل من دَرَس إقبالاً بشكلٍ وافٍ .

هـذا على مستـوى الفرد ، ويمكن فهم الانتقـال على مستـوى المجتمع : بالمجتمع الياباني ، فالمجتمع الياباني كان مثل المجتمعات الشرقية محلَّ احتقـار من أصحـاب الأنـاقـة ، إلى أن استطـاع الوصـول إلى مستـوى إثبات الذات ، والوقوف بثقل مماثل أو أشد ، أمام الآخرين .

ذكر شكيب أرسـلان ـ رحمـه الله ـ في كتـابـه (حـاضر العـالم الإسلامي) أن أحد زعماء اليابان قـال لـه مـا معنـاه : « إن العـالم ظلَّ يحتقرنا ، ولا يبـالي بنـا ، إلى أن تعلّمنـا كيف نقـاتل ، فلمـا هـاجمنـا الرُّوس متحدّين القوانين كلها ، وأفنينا منهم الفيالق ، عندها بدأ العـالم يحترمنـا ، وأنتم أيهـا الشرقيون .. ستظلون كـذلـك حتى تفوقـوا العـالم الآخر » .

هـذه النصيحـة تبيِّن كيف يمكن لمجتمـع محلي أن يتجـاوز ضغـط المجتمع العالمي ، بصرف النظر عن الحكم الأخلاقي لهذا التجاوز ، كما سبق في البحث والاستشهـاد بقـولـه تعـالى : ﴿ يُحِبُّـونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢/١٦٥] .

ولا شك في أن اجتياز عقبة المجتمع العالمي يحتاج إلى إحاطة بأرقى ما وصل إليه نمو الضمير العالمي وذكائه ، أي : في أخلاقه وعلمـه ، وليس المراد معرفـة مـا وصـل إليـه فقـط ، لأن هـذا لا يكفي زاداً من أجـل التمكين من اجتيـاز العقبـة ، بل لا بـد من تحصيلٍ أعلى وتطلُّعٍ أسمى ، يمكن معه كشف النقص والاستدراك الذي يبيِّن بوضوح حاجـة العـالم إلى هذا الفهم الجديد .

وهذا الفهم نوع من عالم الشهادة يقتضيه التمكُّن من تجاوز ضغط المجتمع العالمي ، وعـالم الشهـادة هو الـذي يرجع البريق الـذي تمَّت إليـه الإشارة سابقاً ، وبيان أهمية عالم الشهادة هو مـا نسعى إليـه ، حيث أن المسلم يحصر اهتمامه كلـه بـالإيمان بعـالم الغيب ، وبترسيخ هـذا الجـانب فقط والتأكيد عليـه ، والاكتفـاء بـه ، وعـدم المبـالاة بـأهميـة أثر عـالم الشهادة .

واحترام المبدأ من قبل الآخرين يرجع دائماً إلى مـا يتضمنـه عنصر

عالم الشهادة في الإيمان بالغيب ، لهذا يؤكد القرآن دائماً أن عالم الشهادة (آيات الآفاق والأنفس) سوف يشهد لهذا القرآن في المستقبل :
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾
[فصّلت : ٥٣/٤١] .

بينما الإيمان بالغيب المفتقر إلى عالم الشهادة لا يجلب احترام الآخرين وإعجابهم ، وإن جلب شيئاً فإنما يجلب التعجب من شدة الإيمان ، وهذا النوع من الإيمان يمكن أن يكون حتى عند الوثنيين .

وأرجو من المسلم أن لا يتعجل ، وأن لا يرجع إلى يأسه ، إن لم يبن له كل شيء في سطرين أو كتابين ، ولعل وجود بعض الخبرة عندي بمرضه يساعدني على عدم اليأس من شفائه ، وهذا ما يحميني من التعجل في اتهامه تهمة تجعلني امرأ فيه جاهلية ، فأعيّره بما لا يجوز لي أن أعيّره به ، وإن كنت سوف لا أكف عن تذكيره بتقصيره وببعض نظراته الخاطئة ، التي يكون سكوتي عنها بغضاً له ، لا حبّاً به وستراً عليه كما يظنّ البعض ويريدون مني ..

ولكن هذا التمسك الناشئ عن الإيمان بالغيب فقط ، يستطيع صاحبه أن ينقذ به نفسه ، أما أن يؤثر على الآخرين فهذا مما ليس في الإمكان عمله ، إذ إن الإيمان يبدأ بإنقاذ الذات ، وينتهي بإنقاذ

المجتمع ، وإن الإيمان الذي يقتصر على المرحلة الأولى يكون إيماناً سلبياً .

والفرد الذي يمكنه أن يشرح كيفية انتقاله في إيمانه من إيمانٍ بعالم الغيب ، إلى إيمان مدعوم بعالم الشهادة بوضوح ، يكون قد قام بخدمة كبرى .

ومثل هذا الفرد الذي يتذكر هذه المراحل ، يمكنه أن يتصور إمكان وجود مراحل أخرى أيضاً ، وإن لم يصل إليها بعد ، كما يمكن أن يتصور إمكان اجتيازها ، وكما يمكن أن يتصور الزاد المعين الذي يحتاج إليه للاجتياز ، لأن لكل مرحلة زاداً معيّناً خاصاً بها ، وكما يمكن للفرد أن يتذكر المراحل لموضوع معين ، ويتصور له المراحل التي لم تأتِ بعد .. كذلك يمكنه أن ينقل ما حدث لهذا الموضوع إلى موضوعات أخرى : من الجلباب في الأسرة وفي المجتمع المحلي الخاص ، وفي المجتمع العالمي العام ، وكذلك : الصلاة ، والدعوة إلى الإسلام .. إلى تحمل السجن ، والعذاب .. إلى القدرة على رفض تعذيب المسلمين .. إلى عدم كتمان الإسلام ، إلى عدم شنق المسلمين ... إلخ .

ثم إنه لا يمكن لأحد أن يجتاز مرحلة من المراحل إلا بتحصيل الطاقة المكافئة لتلك المرحلة لإمكان اجتيازها ، فكما يمكن أن يستمر

كل جهاز في سيره إلى أن يستنفد القوة الدافعة ، ثم يقف ، كذلك الإنسان الفرد يستطيع أن يستمر في السير إلى أن يصل إلى مرحلة معينة فوق طاقته ، فعندها يقف[1] ، إذ لكل إنسان في علاقته بمثله الأعلى شبكةُ علاقات كمية وكيفية ، فحسب تمام شبكة العلاقات كمّاً وكيفاً ، يستطيع الفرد أن يستمر في تعلُّقه بالمثل الأعلى ، وكلما قلت الشبكات أو تقطعت ، وكلما كانت الشبكات منحطة في الكيف ، بالية ، لا طاقة لها على التحمل ، لا يمكن لصاحبها أن يجتاز بها إلا مراحل معينة ، أو يؤدي به الأمر في النهاية إلى التبرؤ من هذا النسيج البالي كله ، ومن ثم يتوجه وجهة أخرى .

فإذا كانت الأخوات يذكرن كيف تغلبن على بعض الموضوعات . واستطعن أن يلتزمن المثل الأعلى فيها ، ويتذكّرن المراحل التي مَرَرْن بها ، وكيف حَصَلْنَ على الطاقة التي ساعدتهنّ في فرض الاحترام والإعجاب دون مجرد الانسحاب من المجتمع ، بل والسير لغزو المجتمع ، فإذا استطَعْنَ إدراك ذلك ، أو استرجاع فهمه ، فهذه التجربة التي نظنها صغيرة ، ما هي إلا رصيد كبير ، لإمكان إدراك السُّنة في مشكلة المسلمين ، وتطبيق السُّنة في حلِّها ، ففي مستوى الأسرة مثلاً ينبغي

---

(١) هذا مانلاحظه في كثير من الذين يقبلون على الإسلام أو المبدأ بحماسة ، ثم نجدهم في مرحلة ما قد فقدوا كل شيء .

للمرء أن يجتاز معارضة الأسرة ، ويفرض احترامه عليها ، وفي مستوى المجتمع الخاص ينبغي له كذلك أن يجتاز معارضة هذا المجتمع ، ويفرض احترامه عليه ، وفي مستوى المجتمع العالمي ينبغي له هذا أيضاً ، وهذا لا يتم بمنطق السهولة ، وإنما يقتضي من الفرد ذكاءً وإخلاصاً كبيرين ، حيث يبدأ في طريق صعب ، لا يتمكن من السير عليه إلا بإيمان بالغيب مدعوم بعالم الشهادة (آيات الآفاق والأنفس) .

فالفرد الذي يدخل في هذا الموضوع ، ويكشف الصواب فيه قد يعارَض في أول الأمر ، ويجد أن المعارضة تأخذ أشكالاً مختلفة من إهماله ثم الرثاء له لسخافة فكرته واتجاهه ، ثم السخرية منه ، ثم الضغط عليه بصور مختلفة .. إلخ .. إلى أن يبلغ في النهاية إلى تقدير المجتمع واحترامه له .. ولو بعد وفاته .

يقال : إن أول من حمل المظلة (الشمسية) سُخر منه في أول الأمر ، ثم إن حاجة الناس إليها جعلتهم يقبلونها ويستخدمونها . وعلى قدر ما يُثبت المرء صحّة وجهة نظره في معالجة مشكلات المجتمع والإنسان الذي يعيش فيه يكون ثباته راسخاً أو مهلهلاً . فالفرد الذي يكشف سخف ما عليه المجتمع ، والنظرات الخاطئة التي تجرُّ على البشر الذين ينتمون إليه مختلف المصائب هو الذي يستطيع أن يحتفظ بالتوازن أمام المجتمع ، وأن يهدي المجتمع .

الفصل الثالث

أثر المسوّغ

﴿ ألر . كِتَابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ﴾ .

[إبراهيم : ١/١٤]

وعدم إدراك المسلم لأهمية جانب عالم الشهادة ، يفقده وظيفتـه ، وأداء واجبه ، فالإنسان الذي يؤدي واجبه بهمّة ونشاط ، سواء في لعبة الكرة التي يمارسها الشباب للتسلية ، أم في واجبات الأسرة اليومية ، أم في المجتمع الخـاص ، أم في المجتمع الأعم ، يـدرك أنـه يعمل عمـلاً يـؤثر في المجموع ، فلاعب الكرة ينشـط حين يـدرك أنـه يقـوم بعمـل يسهم في نجاح فريقه ، وأنه ليس عالةً عليهم ، أو معيناً لهم فحسب ، أو عـاجزاً عن أن يسهم في مساعدتهم لرفع مستوى عملهم .

وقـد يصـاب بعض النـاس بـأمراض نفسيـة حين يشعرون بـأنهم لا يتمكنـون أن يسهمـوا في شيء من حيـاة من يعيشـون معهم ، وإنَّ الفقدان الكامل للشعور بأي إسهام مهما كان نوعه يؤدي إلى الانتحـار ،

حين يصل الشعور إلى قمته في بعض المجتمعات ، والدوافع التي تؤدي إلى الانتحار لدى الطلاب الذين يخفقون في النجاح هي من هـذا القبيل ، وقـد يصـل بهم الإحسـاس بـالإخفـاق إلى العجـز عن إمكانيـة مقـابلـة النـاس ، فيرون الموتَ أسهلَ عنـدهم من أن يراهم النـاس مخفقين في أداء واجباتهم .

ويـؤدي الأمر إلى أمراض مختلفـة في الحسـاسيـة ، أو في تبلُّـد الإحساس ، والعيش الطفولي ، ومظاهر أخرى مختلفة .

ومقابل هذا ، نجد في الطرف الآخر الإنسان الذي يملك ما يثبت به للآخرين ويدلّهم به على أنه يسهم في أعمـالهم ، أو أنـه يستطيع أداء عمل لهم قد يعجزون عنه .

ومرة كنت بين أطفـال في مسجـد من مسـاجـد لاهـور البـاكستـانيـة ، وقـد أحـاطـوا بي ينظرون إليَّ ، وأنظر إليهم ، ولكن لا يستطيعـون التكلُّم معي ، ولا أستطيـع التكلُّم معهم لاختـلاف لغـاتنـا ، فخطر لي أن أتعلَّم منهم الأعـداد من ١ إلى ١٠ بـاللغـة الأُورديـة ، وبشيء من الإشـارة واستخـدام بعض الحركات والكلمـات استطـاعـوا أن يفهمـوا مني أني لا أعرف الأعـداد ، وأريـد أن أتعلمهـا منهم ، فرأيتهم فرحـوا لـذلـك ، وسرّوا سروراً عظيمـاً ، خـاصـة حين

أمكنهم أن يساعدوني في تعلّم هذا الذي لم أكن أعلمه ، ويعلمونه هم . فصار كل واحد منهم بذلك أستاذاً لي .

وبهذا المثل البسيط يمكننا أن نفهم السرّ في انطلاق مسلمي الصدر الأول بأقصى توتّر إيجابي شهده العالم ، إنهم كانوا يشعرون بأن الله ابتعثهم ليقدموا حقيقة هذا الدين الذي يكرّم الإنسان ، ويخرجه من ذلّ العبودية لغير الله ، إلى عبودية الله وحده ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

فمعنى هذا أن الإنسان الذي يدخل بين بشر آخرين ، ويستطيع أن يسهم في حلّ مشكلة من مشكلاتهم ، يشعر بمكانته بينهم ، فلا يدخل ذليلاً مهيناً ، بل يشعر بكرامته ومكانته .

هذا شأن فهم الفرد لوضعه في الأسرة ، فإذا شعر أنه لا يمد الأسرة بشيء فإنه لا يصعب عليه فقط حل مشكلاتها وإنما هو عالة عليها أيضاً ، وكذلك يمكن تصور هذا الوضع مع مجتمع معين ، ومع المجتمعات الأخرى في العالم في الإسهام في حلّ مشكلات العالم .

فَفَهْمُ علاقة الفرد بالأسرة ، يسهم في معرفة علاقة الأسرة بالمجتمع الخاص ، وفهم علاقة الأخيرين يسهم في فَهم علاقة المجتمع الخاص بالمجتمعات العالمية ، فكما أن شعور الفرد بأنه يسهم في إقامة مجتمعه ،

ويستطيع أن يقدم لـه شيئـاً ، يعطيـه التوازن والشعور بـالكرامـة ، كذلك المجتمع الخاص مع المجتمع العالمي يحدث لـه الشعور نفسـه ، فيرفع من معنويات الأفراد المنتسبين إليه ..

إن موقفـاً مُشَرِّفـاً لممثّل مجتمع مـا في المجتمع العـالمي ، في الوقـوف أمـام الأخطـاء دون استمرارهـا ، أو في اقتراحٍ مـا يُخرج العـالم من أزماته ، ينتزع من المجتمعات العالمية الإعجاب والاعتراف .

إن إدراك أثر مثل هذا الموقف في معنويات الأفراد الذين يكون هذا شـأن ممثّلهم سوف يرتفع بهم إلى مقـام كبير ، وسوف يشعرهم بـأثر الخدمة اليومية التي يقومون بها في بناء مجتمعهم ، وأثرها في العالم أيضاً ، وربما استطاع غاندي أن يحمل مثل هذه النسمات المنعشة إلى حدٍّ مـا ، إلى قلـوب المـلايين من أمتـه ، ويرفعهم من درك الحقـارة إلى الشعـور بالذات ، وببعض المعاني التي يمتاز بها .

والمجتمع الإسـلامي اليـوم محروم من مثـل هــذه النسمات ، وهـو غائب لا يسهم في بناء العـالم ، ولا في حلِّ مشكلاتـه ، بل لا قُـدْرَةَ لـه على أن يحول دون التآمر العالمي عليه ، وبقدر مـا يحرص الآخرون على التآمر عليه ، بقدر ما يسهِّل هو مهمّتهم ، وذلك بغفلته ، ولوثتـه ، وهم (مسلمو اليوم) أدنى من (تَيْم) القبيلة التي يصفها الشاعر بقوله :

وَيُقْضى الأمْرُ حين تَغيبُ تَيْمٌ ولا يُسْتَـــأمَرُونَ وَهُمْ شُهُــودُ

بـل إن العـالم الإسـلامي لا يـدخـل المجتمـع البشري كمجتمـع مسلم أو باسم مجتمع مسلم ، لأنه فقَدَ كيانه بوصفه مجتمعاً مسلماً ، وإنما يـدخل المجتمع العـالمي بوصفـه مجتمعـاً قوميـاً أو وطنيـاً ، ومعنى هـذا أن أمره لم يقتصر على عـدم مشـاركتـه في صنع العـالم ، بل إنـه ليس لـه وجـود ، أو حضـور شخصي ذاتي ، فقـد زالت شخصيتـه من الـوجـود الـدولي ، فالمسلم لا يحضر العالم اليوم على أنـه مسلم ، وإنما يحضره على أنـه هنـدي أو عربي أو إيراني ، أو تركي .. إلخ .. وهـذا الـوضـع قضى على شهـود الشخصية المعنويـة ، وهنـا سقـط وجوده في الأسرة الـدوليـة ، فكيف يمكن أن يتحـدَّث عن مهمتـه ، وهـو لما يـولـد بعـد ؟ ولمـا يـولـد حضوره ؟ وإن البحث في أية قضية يأتي بعـد وجود صـاحبهـا . وكان عملاً ناجحاً بالنسبـة لمن قرروا مصير الرجل المريض ، حين أمكن نفي الشخصية الإسلامية من الوجود بهـذا الشكل الـذي آل إليـه ، وحُوفِـظَ على استمرار نفيه ، حتى لا يثبت وجوده .

وإن فَهْمَ القضية بهذا الشكل يساعد على إحياء هذه الشخصيـة ، وعلى توضيح ما يمكن أن تسهم به (بعد إحيائها) في بناء العالم .

فالفرد المسلم عليه ضغط وأثقال من هذه الأوضاع التي يعيشهـا ،

فلا وجود له ، ولا يُعْتَرَفَ به في المجتمع العالمي ، ولا وجود لـه حتى في دولته القومية الخاصة ، وإن كان لـه وجود قومي في دولتـه الخـاصـة ، ولـه وجود دولي بوصفـه عربيـاً أو تركيـاً ، إلا أنـه لا وجود لـه دولياً بوصفه مسلماً بل مواطناً فقط .

والمسلم لا يُـدْرِكُ هـذا التفصيـل أبـداً ، ولا كيف حـدث لـه ، ولا كيف يرفعه عن نفسـه ، وإنما هو يحمل ضريبـة الـذل والمنبوذيـة والهوان فقـط حين يمـارس عملـه اليومي في وجـوده كأي إنسـان ، فهـو مُعْتَرَفٌ به إنسـانـاً فقـط لا إنسـانـاً مسلمـاً ، والمشكلـة كامنـة في الأُميَّة الفكرية التي يعيشها العـالم الإسلامي ، فهـذا الوضع الفكري هو الـذي يَشُلُّ قواه كلها ، ويجعل طاقاته معطَّلة ، ومُسَخَّرةً لصالح غيره ، ثم لم يدرك المسلم بَعدُ أن جُهده اليومي هو الذي يمكن أن يغيِّر هذا الوضع ، وإنما يظن أن أعمالاً أخرى كبيرة هي التي ستغيِّر ، ولا يفطن البتة إلى أن عملـه اليـومي متصـل حتى بهـذه الأعمـال الأخرى الكبيرة التي ينتظرهـا ، وأن هـذه الأعمـال لا توجـد إلا بهـذه الجهود اليـوميـة التي ستغيِّر من النفس ، فـالأمر كما يقـول الأستـاذ مـالـك بن نبي ـ رحمه الله ـ :

« ... إن التـاريخ لا يبـدأ من مرحلـة الحقوق ، بـل من مرحلـة الواجبات المتواضعة ـ في أبسط معنى الكلمة ـ الواجبـات الخـاصـة بكل

يوم ، بكل ساعة ، بكل دقيقة ، وليس في معناها المعقَّد كما يعقّده عن قصد أولئك الذين يعطِّلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء ، وشعارات كاذبة .. يعطِّلون بها التاريخ ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة »[1] .

ويمكن أن نضرب مثلاً آخر لتوضيح هذه القضية ، ذلك التاجر الذي يدخل السوق سواء أكانت سوقاً محلية أم عالميَّة فإن مما يحدِّد موقفه من السوق أن يعرف الأشياء التي تروج فيها ، وقيمة ما يعرض هناك ، فحين يعرف حاجة السوق ، وميزة ما عنده على ما يعرضه سواه ، عندها يدخل السوق وهو متمكِّن ...

وكذلك الحال في سوق الأفكار العالمية ، حيث تعرض فيها الأفكار المخصصة لحلِّ مشكلات العالم ، فَمَنْ لَمْ يعرف قيمة هذه الأفكار المعروضة وأهميتها في حلِّ مشكلات العالم ، ويعرف الحلول التي يقترحها أصحاب الرأي في هذا المجال ، ونتيجة التطبيقات ، لا يمكنه أن يعرف قيمة ما عنده ، ولا أن يعرف كيف يتم له تعريف العالم على ما عنده من بضاعة وأفكار .

وهذا هو الغياب من جانبين : غياب عن معرفة ما عند العالم ،

---

(١) مالك بن نبي ؛ في مهبِّ المعركة ، دار الفكر دمشق ، ط ٤ ، ١٩٩١ ، ص ٨٨

وغياب عن معرفة ما عنده ، وهذا هو موقف العالم الإسلامي والمسلم من سوق الأفكار العالمية ، إذ لا يشعر أنه يملك شيئاً يسهم به في حلٍّ أزمات العالم ، بينما اليوم تحوّل الصراع إلى الفكرة حتى الذين يجعلون القيمة الكبرى للاقتصاد ، نراهم لا يهملون ، بل ولا يستطيعون أن يهملوا أهمية الأفكار ، فعند التنافس العالمي يقول كل منهم : « إن الفكرة التي بنيتُ عليها اقتصادي هي الفكرة الصحيحة بدليل النتائج » .

فإذا كان العالم اليوم يعاني من مشكلة الحرب ، ويتطلع إلى السلام ، ولا يجد الطريق التي توصله إلى ذلك الهدف ، بذلك يمكن أخذ فكرة عامة عن المشكلة التي يعانيها العالم والأطباء الذين يتسابقون في وضع حلول لهذه المشكلة .

فحين يتَأمَّلُ البصير تاريخ هذه القضية ، والمعالجات التي عولجت بها ، والنتائج التي وصلوا إليها ويتأمَّل ﴿ .. سُبُلَ السَّلام .. ﴾ [المائدة : ١٦/٥] ، يمكنه أن يعرف الزاد الذي عنده عندما يدخل السوق ، تلك السوق التي غَدَتْ موضع مقامرة على العالم ، فيدخلها لينقذ العالم .

وهذا ليس مستحيلاً .. ولكن يحتاج إلى تأمُّل ، فنحن مع الأسف نكره التأمل ، ونكره التفكير ، ولا نريد هذه الموعظة أصلاً !!

الفصل الرابع

الشُّعور بالمنبوذيَّة

﴿ وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِه ولِلْمؤمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

[المنافقون : ٦٣/٨]

ومن مناسبة حادثة خلع الجلباب ، نستطيع أن نستفيد في فهم قاعدة أساسية وهي :

كيف يحدث الشعور بالمنبوذية لدى من لبس ثوباً معيناً؟

والواقع أن اللباس ليس مصدر المنبوذية ، وكل ما بين المنبوذية واللباس من علاقة : هو أن اللباس ليس أكثر من مُذَكِّرٍ ، أو مثير لحالة المنبوذية التي وصل إليها المسلم ، وشأن اللباس في هذا الأمر كشأن الجرس في تجربة (بافلوف) حيث اقترن رنين الجرس بتقديم الطعام للمخلوق الذي تجري عليه التجربة ، حتى أصبح صوت الجرس وحده كافياً لإسالة لعابِ هذا المخلوق ، وكذلك حين رُئِيَ الإنسان

المنبوذ في لباس معين ، صار اللباس وحده كافياً لإثارة الشعور بالمنبوذية ، مع أنه ليست بينهما علاقة سببية في الأصل .

والذي لا يتأمل هذا ، يلتبس الأمر عليه ، ويخضع في حياته للمنعكسات الشرطية مبتعداً عن بحث الأسباب الأصلية البعيدة ، بل يصبح ألعوبة بيد مَنْ سواه ، وقد جرَّب العلماء هذه الأمور في اقتران الشيء بأمر مثير له ، وبيّنوا : كيف تتكوّن ؟ وكيف تُنْسَى عند الحيوان وعند البشر ؟ وحَدَّدوا عدد المرات التي تنشأ بها العلاقة ، أو تبطل ؛ كما حدَّدوا الزمن الذي يستغرقه هذا الأمر .

وعلى هذا الأساس يمكن النظر إلى الجلباب واقترانه بالشعور بالمنبوذية ، فالمسلم الذي عاش منبوذاً أمداً طويلاً ، صار كل شيء مرتبطٍ به يوحي بالمنبوذية ، وفي الحقيقة إن الثوب أقلّ هذه الأشياء : فالصلاة والصيام وأمور العبادة الأخرى أشدّ من الثوب اقتراناً بالمنبوذية ، حتى ليصل الأمر ببعض ضعاف النفوس ممن يشعرون بالمنبوذية أنهم يُظْهِرون العداء للمسلم كي يُظْهِروا براءتهم من المنبوذية أمام العالم !!

والمنبوذ الحقيقي هو (مسلم اليوم) ، فإذا رفعنا عنه المنبوذية ـ بإعادة التوازن لكيانه ـ فترة من الزمن نكون قد قطعنا العلاقة

مـا بين المنبوذيـة وبينـه ، ولا تعود الأشيـاء المرتبطـة بـه تثير الشعـور بالمنبوذية ، ولم يعد الجلباب أو الصلاة أو الصيام أموراً يستحيي منها ، بل ترجع هـذه الأمور المقـدسـة كما كانت من قَبْلُ مظهراً لعزة الإنسـان الملتزم بها ، وطالما بقي الشعور بالمنبوذية عنـد المسلم ، فلا جـدوى من تغيير شيء في أوضاعه .

وهذا مـا بيَّنَـه مـالـك بن نبي ـ رحمـه الله ـ في كتـابـه (في مهبِّ المعركة) حين تحدَّث عن المرأة ، وفرَّق ما بين التهوُّر والتطوُّر ، واعتبر تغيير المظهر ليس كافياً للتطوير الحقيقي ، لاللرجل ولا للمرأة ، وأنـه لا بدّ من تغييرٍ جذريٍّ في النفس على أساس قواعـد مُقَرَّرة في علم النفس والاجتماع .

فـإذا غيَّرنـا النفس ، ورفعنـا الشعـور بـالمنبـوذيـة الـذي اقترن بلباس معين ، يمكن للباس نفسه أن يثير الشعور بالكرامة الذي أصبح يملأ نفس المسلم ، فهـذا معنى مـا يقـال : (ينبغي أن لا تحجب ظـاهرة شكليـة عنّـا مشكلـةً حقيقـةً ، أو موضوعـاً جـوهريـاً ، كما تحجب عنّـا الشكلية الظاهرية لحركة الشمس الحقيقة الموضوعية من حركـة الأرض حول الشمس ..) .

☆ جدول مصطلحات الشعور بالمنبوذية :

المصطلح	في تجربة بافلوف	في موضوع بحثنا
المثير الطبيعي	الطعام	حالة التردي (التخلُّف) التي وصل إليها مسلمو اليوم
المثير الاصطناعي	دقات الجرس التي ترافق تقديم الطعام للمخلوق	الجلباب ـ الصلاة ـ الصوم ..
الاستجابة	سيلان لعاب المخلوق الذي تجرى عليه التجربة	المنبوذية ـ والشعور بها
الانطفاء	عدم سيلان لعاب المخلوق عند سماعه رنين الجرس	عدم الشعور بالمنبوذية عند رؤية أو عند لبس الجلباب ، أو القيام بالفرائض
سبب الانطفاء	إذا استخدمنا الجرس عدة مرات متتالية دون تقديم الطعام للمخلوق	إعادة التوازن لكيان المسلم وذلك بتغيير ما بنفسه ..

(☆) وللتوسع في فهم موضوع الترط المنعكس يمكن مراجعة ـ مثلاً ـ كتاب علم النفس التربوي للدكتور أحمد زكي صالح .

والظاهرة الشكلية في موضوعنا هنا ، هي بعض الأوضاع التى تلابس الحقيقة الجوهرية ، فكلٌّ من التخلُّف أو النمّوّ ، أو الشعور بالأناقة ، يمكن أن تلابسها مظاهر شكلية ، كاللغة ، واللباس ، والقوم ، وما أشبه ذلك ، فهذه ليست أموراً جوهرية ، وتحصيلها أو التزيُّن بها لا يجعل الإنسان يحصّل المضمون الحقيقي .

فينبغي أن نتوجّه أولاً إلى إعادة التوازن لكيان هذا الإنسان حتى نخلّصه من المشكلات الكثيرة المتعدّدة التي لا تُحْصى ، سواء أكانت موجودة الآن أم لم توجد بَعْدُ .

كما وقعنا في المشكلة نفسها من جانب آخر حين ظننّا أننا قد صِرْنا مُكَرّمين حين لبسنا ثوب الذين يشعرون بالكرامة ، فالفرار من خطأ ، أوقعنا في خطأ لا يقلّ عنه ، فصرنا بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وكان سعينا كله في ضلال ، لأننا لم نبدأ من حيث أمرنا الله أن نبدأ به عندما نريد أن نغيّر شيئاً ما ، ألا وهو ما بالنفس ... وصدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ إنّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد :١١/١٣] .

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين

أخوك : جودت سعيد

يوم الاثنين ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٨ هـ

١٢ آب ١٩٦٨ م